الجمع بين الأسماء المتقابلة

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: ٣]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]).

(الشرح)

قوله: (**وقوله سبحانه:{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}**: هذه أربعة أسماء حسنى لله تعالى، أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها نبيه، صلى الله عليه وسلم، له في سنته؛ فقال في مناجاته لربه: (اللهمّ أَنْتَ الْأَوّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)[١]، فقد كفانا تعريفها نبينا ﷺ بأوضح عبارة؛ فلا نحتاج أن نقول: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء؛ كما قال بعضهم، فما دام قد عرفها النبي، صلى الله عليه وسلم، فلا يعدل به تعريف.

قال ابن القيم–رحمه الله: (فمعرفة هذه الأَسماءِ الأَربعة وهي: الأَول والآخر والظاهر والباطن، هي أَركان العلم والمعرفة؛ فحقيق بالعبد أَن يبلغ في معرفتها إِلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أَن لك أَنت أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، بل كل شيء؛ فله أَول وآخر، وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأَدنى من ذلك، وأَكبر.

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

فأَولية الله عَزّ وجَلّ سابقة على أَولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه؛ فأَوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شـــيء، وظاهريتـــه، سبحانه، فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلـــو، وظـــاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إِحاطته بكل شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه. وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لـــون وهذا لون.

فمدار هذه الأَسماءِ الأَربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانيـــة، فأحاطت أَوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إِلى أَوليته، وكل آخـــر انتهى إِلى آخريته؛ فأَحاطت أَوليته وآخريته بالأَوائل والأَواخر. وأَحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إِلا واللـــه دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأَول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كـــل شـــيء بأَوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه. فلا تواري منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأَسماءُ الأَربعة تشتمل على أَركان التوحيد، فهو الأَول في آخريته، والآخر في أَوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أَولاً وآخراً وظاهراً وباطناً)[١].

قوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}: جمعٌ بين النفي والإثبات، وقد تقدم معنى (الحي)، وقوله: {لَا يَمُوتُ} تأكيد لمعنى الحياة، ودليل على أن إثبات الصفة نفي لنقيضها؛ خلافًا للجهمية، والقرامطة.

والتوكل: اعتماد القلب على الله، عز وجل، في جلب المنافع، ودفع المضار، وهو من أجل العبادات؛ ليس من أضعفها؛ كما يدعي بعض الصوفية! لأنه يدل على الثقة بالله، سبحانه وتعالى، وحسن الظن به.

وفي تعليقه على هذا الاسم الشريف، ونفي ما يناقضه، مناسبة، ظاهرة، بديعة؛ وذلك أن من توكل على غير الله فقد توكل على من يموت؛ فإذا مات الوكيل بقي الموكِّل بلا وكيل، أما الله تعالى فهو وكيلٌ لا يموت، سبحانه وبحمده؛ فيثمر ذلك طمأنينة القلب.

---

[١] طريق الهجرتين وباب السعادتين: (١/ ٤٦-٤٨).

إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: {الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: ٣]، وقوله: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]، [يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: ٢]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، [وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ] [فصلت: ٤٧]، [لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]).

(الشرح)

شرع المصنف -رحمه الله-في ذكر آيات انتخبها من كتاب الله تدل على إثبات أسماء وصفات معينة؛ لم يقصد بها الحصر، والاستقصاء، وإنما أراد أن يبين أنّ طريقة أهل السنة والجماعة مطردة في الإثبات؛ سواء في ذلك الصفات الذاتية، والصفات الخبرية، والصفات الفعلية، وأن القول فيها واحد، وهو الإثبات، والإمرار، والإقرار؛ لا يُتعرض لها بتحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وابتدأ بذكر الآيات الدالة على علم الله تعالى من خلال أسمائه الحسنى: (العليم)، و (الخبير)، و(الحكيم)، وصفة (العلم) من أخص صفاته سبحانه وأشهرها.

قوله: {الْعَلِيمُ}: من له العلم المطلق؛ يؤمن أهل السنة والجماعة بعلم الله المحيط بكل شيء؛ جملةً وتفصيلًا، كليًا وجزئياً، أزلًا وأبدًا؛ ما يتعلق بأفعاله سبحانه؛ كالخلق والرِّزق والإحياء والإماتة، وما يتعلق بأفعال عباده؛ كالطاعات والمعاصي؛ فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون.

والعلم من صفاته الذاتية، وليس العليم بمعنى العارف، فإن المعرفة انكشاف بعد جهل، والله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا؛ لا يجِدُّ له علم لم يكن علمه.

وعلم الله غير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان، بخلاف علم المخلوق؛ فإنه مسبوق بجهل، ويلحقه النسيان؛ قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل]، يخرج الطفل من بطن أمه لا يعرف حتى اسمه، قال تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [النحل: ٧٨]، فينمو العلم، شيئا فشيئًا، عن طريق هذه المنافذ، السمع، البصر، العقل، وتتراكم المعارف، حتى يصبح من أكبر العلماء، ويحمل الألقاب العلمية الرفيعة، ثم يهرم؛ فيأخذ في الانحدار؛ قال تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} [النحل]، وإذا بهذا المخزون الذي تم جمعه، عبر عقود من الزمن، يأخذ في التحلل، والاضمحلال، فيُقال لهذا الشيخ الفاني: ما اسمك؟ فلا

يعرف اسمه! أنحن في ليل أو نهار؟ فلا يعلم؛ لا يميز بين الأوراق النقدية، وقد كان يوم من الأيام يعُدها عداً، وينقدها نقدًا! أما علم الله تعالى فغير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان؛ قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، كما إن علم الله شامل محيط، وعلم المخلوق قاصر؛ قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}.

ومن الآثار الإيمانية للإيمان بعلم الله طمأنينة المؤمن إلى شرع الله وقدره، وامتلاء قلبه بإحاطة الله بجميع شؤونه الخاصة والعامة؛ فلا يشعر بالوحشة والقلق.

قوله: {الْحَكِيمُ}: من له الحكمة البالغة، والحكم النافذ.

فالله حكيم بمعنى: ذو الحكمة، والحكمة لغةً: وضع الشيء في موضعه، وضدها السفه والطيش، والإِحْكَام هو الإتقان، ومنه سميت الحَكَمة، وهي لجام الفرس، لأنها تحكم سيره، والله، تعالى، حكيم في شرعه؛ فلا يشرع أمرًا إلا وفيه مصلحة محققة حالًا، أو مآلًا، كما أنه حكيم في قدره؛ فكل ما يقضيه الله تعالى، ويقدره، فهو الموافق للحكمة قطعًا؛ سواء ظهرت لنا هذه الحكمة، أم لم تظهر.

والله حكيم بمعنى: الحاكم في الدنيا والآخرة؛ فهو، سبحانه وتعالى، يحكم ما يشاء، ويقضي ما يريد، في هذه الحياة الدنيا، ويحكم في خلقه في الآخرة؛ ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

ومن الآثار الإيمانية للإيمان بحكمة الله القناعة العقلية، والطمأنينة النفسية، لما يحكم به سبحانه شرعًا، وما يقضيه قدرًا؛ فلا يتسلل إلى قلب المؤمن شعور بالحيف، والظلم، والفوضى؛ فيذهب عنه كل وسواس بعدم حصول حكمة فيما قضاه أو شرعه؛ بل يعتقد يقينًا بأن الله لا يقضي عليه قضاء إلا كان خيراً له، وأن المقدورات لا تقع فلتة، أو خبط عشواء، أو ضربة لازب؛ كما يعبر بعضهم! قد وزن الله تعالى الأمور بميزان دقيق، وقسطاس مستقيم، فحينئذٍ يطمئن المؤمن إلى قدره؛ قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: ٢٣]، كما يرضى بشرعه؛ قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: ٥١، ٥٢].

وهذا يدل على أن كل اسم من أسماء الله الحسنى له أثر علمي، وأثر مسلكي؛ فما أخبرنا الله، تعالى، بهذه الأسماء لمجرد عدِّها بالأصابع والمسابح، بل لما لها من أثر بالغ على قلب الإنسان، وسلوكه.

قوله: {**الْخَبِيرُ**}: من له الخبرة التامة، والخبرة: العلم ببواطن الأمور، ودقائقها وتفاصيلها، وقد وُجد من أهل البدع من يزعم أن الله يعلم علمًا كليًا، لا جزئيًا، ومنهم من يقول: إنه يعلم علمًا مجملًا، لا تفصيليًا، والحق أن ربنا، سبحانه

وبحمده، يعلم بالأشياء كليًا وجزئيًا، إجماليًا وتفصيليًا؛ لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، ويبين ذلك الآيات التي بعدها:

قوله: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}: الولوج: الدخول، ومما يلج في الأرض: الماء النازل من السماء؛ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} [الزمر: ٢١]، والدواب، والدويبات، التي تتخذ لها جحورًا، وبيوتًا، في الأرض؛ قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: ٦]، والأموات يدفنون في الأرض، كما قال تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ} [طه: ٥٥].

قوله: {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}: مما يخرج من الأرض النبات، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا} [الأنعام: ٩٩]، العيون؛ قال تعالى: {وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ} [يس: ٣٤]، والناس من الأجداث؛ قال تعالى: {وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٥]، وهكذا تستخرج المعادن، والبترول، وغير ذلك؛ والولوج والخروج صورتان متقابلتان.

قوله: {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ}: مما ينزل من السماء المطر، قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: ١٧]، والوحي؛ قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]، والملائكة؛ قال تعالى: {تَنَزَّلُ

الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } [القدر: ٤]، والشهب؛ قال تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} [الطور: ٤٤]، وغير ذلك.

قوله: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}: أي يصعد ويرقى، ومما يعرج إلى السماء الملائكة الكرام؛ قال تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: ٤]، والكلم الطيب؛ قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، وممن رفع وعرج به عيسى بن مريم، عليه السلام؛ قال تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٨]، ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، ليلة المعراج، وأرواح المؤمنين، إذا قبضت؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة. والنزول والعروج صورتان متقابلتان.

فكل شيء إما داخل في الأرض، وإما خارج منها؛ إما نازل من السماء، وإما صاعد فيها؛ فدلت هذه الآية على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء.

قوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، مفاتح جمع مفتح، ومفاتيح جمع مفتاح، وهما بمعنى واحد، ومفاتح الغيب: علم الغيب وسره، وقد فسرها النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)[١]، وإذا تأملت في هذه الخمس وجدت أن الله، سبحانه وتعالى، منفرد بعلمها.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٤٦٩٧).

قوله: **{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}**: الأرض إما بر، وإما بحر، والجو تابع للقرار، و(ما) بمعنى الذي، التي تشمل العاقل، وغير العاقل، وفي البراري كائنات مرئية، وغير مرئية؛ لا يحيط بها عد، وفي البحار أضعاف ذلك، ومن أتيح له أن ينظر في بعض البرامج، التي تحكي حياة البحار، أبهر، وأذهله ما فيها من أنواع المخلوقات العجيبة.

قوله: **{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}**: "ورقة" نكرة في سياق الشرط، فتدل على العموم؛ فتشمل ورق الشجر، وغيره؛ يعلم متى انفكت من أصلها، ومتى وصلت إلى الأرض، وأنت لو استعملت عن شجرة واحدة، داخل بيتك، لتحصي ما يسقط منها من ورق، لوجدت عناء شديدًا، ولم تحط بذلك علمًا، وربنا، سبحانه وبحمده، يعلم ما في الحدائق، والبساتين، والغابات الممتدة في الكرة الأرضية، من أوراق.

قوله: **{وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ}**: "حبة" نكرة في سياق الشرط، تدل على العموم؛ فتشمل كل حبة تخطر بالبال؛ ترفع حجرًا في البريّة فتجد حبيبات ادخرتها الحشرات، في شق من شقوق الأرض؛ الله يعلمها! قال لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦].

قوله: **{وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ}**: والأشياء إما رطبة، أو يابسة؛ الرطب كالنبات، واليابس كالحجر؛ فيتناول كل شيء.

قوله: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}: جواب الشرط. الكتاب: هو اللوح المحفوظ، الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء؛ قال تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: ١٢]

فهذه الآية العظيمة تملأ قلب المؤمن يقينًا باطلاع الله تعالى على كل شيء، وأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض.

والأثر المسلكي لهذا الإيمان: الشعور برقابة الله واطلاعه؛ فإذا أوصد الأبواب، وأرخى الستور، ذكر أن الله يراه، وإذا حدثته نفسه بسوءٍ، ذكر أن الله يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور؛ فيحمله ذلك على التعرض لمراضيه، والبعد عن مساخطه، لعلمه أن الله تعالى يعلم جميع أحواله؛ ويُقال أنّ رجلاً خلا بامرأةٍ في ليلة مقمرة، فقال: إني أُحبك، فقالت: وأنا والله أُحبك. قال: وإني أُريد كذا وكذا؛ يعرِّض بالفاحشة، قالت: وأنا أريد مثلك. قال: فما الذي يمنعنا؟ ولا يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مُكوكبها؟ فخر مغشياً عليه.

كما أنه أيضًا يفيض على قلبه الطمأنينة؛ فإذا ضاقت به المذاهب، واستحكمت الأزمات، شعر أن الله تعالى يعلم حاله، ويسمع كلامه، ويرى مكانه، وأن بيده مفاتيح الفرج، فاطمأن، واستيقن، أنه ليس مفردًا، ولا مهملًا، بل هو في علم الله، وتحت سمعه وبصره.

قوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى}: "أنثى" نكرة في سياق الشرط، فتدل على العموم، فلا تختص بإناث بني آدم، كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كل أنثى من

المخلوقات، والله تعالى خلق المخلوقات من زوجين؛ ففي الطيور، والدواب، والأسماك، والحشرات والنبات، ذكور وإناث، بل حتى في الكائنات الدقيقة، (الميكروسكوبية)، ذكر وأنثى، فضلًا عن بني آدم؛ قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، وقال: {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [الرعد: ٣]؛ فعلم الله تعالى محيط بهذا كله.

كما أن قوله: {وَمَا تَحْمِلُ}، {وَلَا تَضَعُ} يتعلق، أيضًا، بالتوقيت؛ فيعلق الحمل، ولا يشعر به الزوجان إلا بعد حين، لكن الله يعلمه، ويعلم وقت الوضع، كما قال: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]؛ فهذه دلائل الأسماء والصفات على إحاطة علم الله تعالى بجميع الذوات، والماجريات؛ فإذا امتلأ القلب بعلم الله المحيط بكل شيء، تعلق به، وشعر بالانجذاب إليه، وهذا فضل العلم بأسماء الله الحسنى.

قوله: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}: هذا ختام الآية، التي صدرها: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]؛ فالناظر، بعين البصر والبصيرة، في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله تعالى فيهما من الآيات، وما ركبهما عليه من السنن الكونية، يثمر عنده العلم بهاتين الحقيقتين:

- أن الله على كل شيء قدير
- أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا.

فما كان هذا البناء العظيم، وهذا النظام البديع، ليتم ويجري، إلا لكون خالقهما قديرًا، عليمًا؛ فعلمه محيط بكل شيء؛ لا تخفى عليه خافية، و{لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: ٣]، وقدرته نافذة؛ قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤]، ومن قواعد أهل السنة والجماعة، في باب أسماء الله وصفاته، أن أسماء الله حُسنى، أي بلغت في الحسن غايته، لأن حُسنى (فُعلى) صيغة مبالغة؛ لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الأعراف: ١٨٠]، ومن فروع هذه القاعدة أن اقتران بعض الأسماء ببعض يعطيها حسناً مضاعفاً، كما في هذه الآية؛ علمه مقترن بقدرته، وقدرته مبنية على علمه، فنتج عن ذلك إبداع الخلق وإحكامه.

أما المخلوقين؛ فمنهم من يعلم ولا يقدر، ومنهم من يقدر ولا يعلم؛ فربما وُجِد مهندس معماري يمكنه تصميم بناية شاهقة، لكنه لا يملك المواد الأولية، والأدوات؛ فلم ينتفع بعلمه في تحقيق المقصود، وربما وُجِد من يملك المواد والأدوات اللازمة، لكن لا علم عنده يمكِّنه من التنفيذ؛ فلم ينتفع بقدرته.